الفصل الخامس والعشرون بعد المئة

الكتاب والعلماء

والعلم المعرفة . ورجل عالم وعليم ، صاحب معرفة ، وأصحاب المعرفة والعلم هم العلماء . ويقال في جمع عالم : علاّم ، كجهّال في جاهل . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي سواء عند علام الرجال[1]

وذكر علماء اللغة ان (الناخع) العالم ، وقيل هو المبين للأمور ، وقيل هو الذي قتل الأمر علماً . قال شقران السلاماني :

إن الـذي ربضتما أمره سراً وقد بين للناخع
لكالـتي يحسبها أهلهـا عذراءبكراً وهي في التاسع[2]

والعلاّمة ، والعلاّم ، والتعلمة ، والتعلامة : العالم جدّاً ، وذلك للمبالغة في سعة علم العالم . وذكر علماء اللغة ان « العلامة والعلام : النسابة »[3] ، ويظهـر انهم انما قالوا ذلك ، بسبب ان النسب كان عند الجاهليين من أهم علومهم التي

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٥) ، (علم) .
٢ تاج العروس (٥/٥٢٠) .
٣ تاج العروس (٨/٤٠٦) ، (علم) .

برعوا وتخصصوا بها ، حتى صار النسب مرادفاً للعلم عندهم . وفي القرآن : « انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[1] ، و (علماء بني اسرائيل)[2] ، وألفاظ كثيرة لها صلة بالتعلم والعلم ، وفي ورودها فيه دلالة على وقوف الجاهليين على العلم والتعلم وعلى وجود العلماء عندهم .

وترد لفظة (الكاتب) بمعنى العالم . « قال الله تعالى : أم عندهمُ الغيب ، فهم يكتبون »[3] ، « وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي ، أراد عالماً ، سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة » ، والكاتب عندهم العالم . والاكتتاب الإملاء . تقول : اكتبني هذه القصيدة ، أي املاها عليّ[4] ، و (الكاتب) عند الشعوب الأخرى ، بمعنى العالم كذلك ، وقد كانت للكتاب منزلة كبيرة في مجتمعهم ، إذ كانوا يعدون من الطبقات العالية الممتازة . وذلك لأن الكاتب لا يكون كاتباً إذ ذاك ، ولا ينال العلم ، إلا إذا كان من الطبقة العالية المتمكنة ومن أسرة عرفت بالعلم . والعلم إذ ذاك محصور في العوائل ، وفي رجال الدين وفي الطبقة التي تتولى الكتابة في قصور الملوك .

ونجد في القرآن لفظة : (كتب) و (كَتَبْتَ) و (كَتَبْتَ) و (كَتَبْنا) ، و (كتبناها) ، و (فسأكتبها) ، و (تكتبوه) ، و (نكتب) ، و (يكتب) ، و (يكتبون) و (أكتب) ، و (فاكتبها) ، و (فاكتبوه) ، و (كُتِبَ) و (ستكتب) ، و (اكتتبها) ، و (فكاتبوهم) ، و (كاتب) ، و (كاتباً) و (كاتبون) ، و (كاتبين) ، و (الكتاب) ، و (كتاباً) ، و (كتابك) ، و (بكتابهم) ، و (كتابنا) ، و (كتابه) ، و (كتابها) ، و (كتابي) ، و (كتابيه) ، و (كُتُبٌ) ، و (كُتُبِهِ) ، و (مكتوباً) . وفي ورود هذه الألفاظ فيه معبرة عن معان مختلفة لها صلة بالكتابة وبالعلم ، دلالة على أن الجاهليين كانوا على علم ، وأنهم كانوا يكتبون في أغراض مختلفة من أغراض الحياة ، وأنهم لم يكونوا على نحو ما يقص عنهم أهل الأخبار من الجهل والأمية .

---

١ فاطر ، الاية ٢٨ ، تفسير الطبري (٨٦/٢٢) ، تفسير الالوسي (١٧٦/٢٢) .
٢ الشعراء ، الاية ١٩٧ .
٣ الطور ، الاية ٤١ ، القلم ، الاية ٤٧ .
٤ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .

وذكر علماء اللغة ان (الشهر) وجمعها (شهور) بمعنى العالم ، واستشهدوا على هذا المعنى ببيت شعر ينسب الى أبي طالب ، هو :

فإني والضوابح كل يوم وما يتلو السفاسرة الشهود[1]

قال الصاغاني : هكذا أنشده الأزهري لأبي طالب ، ولم أجده في شعره[2] . ولكن الرواة يروونه على هذا النحو :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[3]

والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب ، والشهود أنسب في تفسير الشعر من الشهور ، لأننا لا نعلم ان أحداً قال إن الشهر : العالم ، وأرى ان تصحيفاً قد وقع في البيت حوّل حرف (الدال) (راء) ، ففسرت لفظة الشهور بالعلماء ، لعدم تصادم هذا التفسير مع المعنى ، وفي العربية مئات الأمثلة على مثل هذا التصحيف .

وترد لفظة (الفقه) بمعنى العلم بالشيء والفهم له . ويظهر ان الجاهليين كانوا يستعملون لفظة (فقه) ومشتقاتها في معان لها صلة بالعلم . ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[4] ، ومن ورود (تفقهون) ، و (تفقه) ، و (يفقهوا) ، و (يفقهون) ، و (يفقهوه) في مواضع منه . وورد في كتب اللغة والأدب والأخبار : « فقيه العرب : عالم العرب » ، و « فقهاء من العرب »[5] . وورد في الحديث : « أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون »[6] ، أي الثرثارون المدّعون العلم والفقه .

ويفهم أيضاً من روايات أهل الأخبار ، انه قد كان للجاهليين أئمة وفقهاء يقضون بينهم ، ويفتون في دينهم ، ويحافظون على دينهم . فهم عندهم سدنتهم وأمناؤهم . وقد ذكر (ابن حبيب) أسماء نفر من (تميم) تولوا الموسم والقضاء

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢ ، ٣٢٠) ، (سفر) ، (شهر) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٠) ، (شهر) .
٣ تاج العروس (٣/٣٧٢) ، (سفر) .
٤ التوبة الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ .
٥ اللسان (١٣/٥٢٢) ، (فقه) .
٦ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٤٢) .

بعكاظ . فكانوا يجلسون في مكان من السوق ، بين المتخاصمين وللافتاء فيما يشكل عليهم من أمر دينهم . وكان منهم من تخصص بالإجازة بالموسم . ومنهم من تخصص بالفتيا والقضاء . ومنهم من جمع بين الاثنين[1] .

وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن كتب ومؤلفات نقول إن الجاهليين كتبوها بالعربية على نمط اليونان واللاتين والفرس والسريان في الكتابة والتأليف ، ذلك لقصور علمنا في الموضوع ، ولعدم وصول أي خبر الينا عنه حتى الآن .

نعم ، لقد أشرت الى وجود ما يسمى (مجلة لقمان) و (حكمة لقمان) والى كتب امتلكها بعض الجاهليين ، إلا أن الاخباريين لم يصفوا كيف كانت مجلة لقمان ، ولم يتطرقوا الى ما كان فيها ، كما أن الظواهر تشير الى أن تلك الكتب هي مؤلفات جيء بها من بلاد الشام والعراق واليمن ، أغلبها في موضوعات دينية وتأريخية وقصص . وأما لغتها ، فيظهر أن بعضها بعربية القرآن الكريم ، كمجلة لقمان ، وبعضها بلغة بني إرم .

أما ما قيل له (الأساطير) أو (كتب الأساطير) ، فهو كتب قصص وسمر وحكايات وتواريخ . وتدل التسمية على أنها من أصل يوناني ، هو : Historia و Storia في اللاتينية وتعني التأريخ ، عرّبت فصارت (أسطورة) وجمعت على أساطير ،واستعملها الجاهليون استعمال اليونان واللاتين ، أي أرادوا بها تواريخ الماضين وحكاياتهم وقصصهم .

وأما ما قيل له (السفاسرة) ، فالسفسير الحاذق بالشيء . والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . والكلمة من أصل (إرمي) على رأي علماء اللغة . و (سفسير) بمعنى (سمسار) في لغة (بني إرم) ، أي المساوم[2] . والظاهر ان (السفاسرة) ، من (سفر) ، و (سفر) (سيفير) بمعنى كتاب في عدد من اللغات السامية . وتقابل (سفرو) في لغة بني إرم ، بمعنى كتاب[3] . وقد كان بمكة وبغيرها رجال يتلون الكتب ويقرأون أسفار أهل الكتب من دينية وغيرها قبل الاسلام وفي الاسلام . « وفي الحديث : لا تعلموا أبكار أولادكم كتب

---

١ المحبر (أئمة العرب) ، (ص ١٨١ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

النصارى : يعني أحداثكم »[1] . وفي هذا الحديث إن صح دلالة على ان قراءة الكتب كانت منتشرة في ذلك العهد . ولا تعني جملة (كتب النصارى) الكتب الدينية بالضرورة ، إذ قد تعني كل ما كان يتداوله النصارى من كتب في ذلك العهد . وقد يكون من بينها مؤلفات في الفلسفة وفي الطب وفي فروع المعرفة الأخرى التي كان الناس يتدارسونها إذ ذاك .

وفي الآية : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل : أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . إنه كان غفوراً رحيماً »[2] ، دلالة صريحة على وجود الكتب والأساطير عند الجاهليين . فلما نزل القرآن ، قال المشركون : « إن هذا إلا افك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين ، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم. اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملى عليه ، يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير ، تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب، وأمليت بكرة وأصيلاً ، يقول وتملى عليه غدوة وعشياً . وقوله : قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، بل هو الحق أنزله الرب الذي يعلم سر من في السموات ومن في الأرض ولا يخفى عليه شيء »[3] . وزعموا ان الرسول اكتتب القرآن من (أساطير الأولين) ، وهي أحاديث سطرها المتقدمون كأخبار الأعاجم ، « فهي تقرأ عليه أو كتبت له »[4] ، وقالوا : « ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم »[5] . وكانوا يروون الأساطير وأحاديث الخلق ، وهي الخرافات من الأحاديث المفتعلة، فرمى المشركون الرسول بهذه الفرية[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٥٧) ، (بكر) .
٢ الفرقان ، الآية ٥ .
٣ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) .
٤ تفسير النيسابوري (١٨/١٢٥ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير الالوسي (١٨/٢١٣) .
٥ تفسير الطبري (١٩/٦٠) ، تفسير الالوسي (١٩/١٠٠) .
٦ اللسان (١٠/٨٨) ، (خلق) .

وقد ذهب (شبرنكر) — وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ — الى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : (أساطير الأولين)[1] . وقد أخذ رأيه هذا من الآية: « وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[2] . وهذه السورة هي من السور المكية . فهي تشير الى زعم قريش في أن القرآن ، هو شيء اكتتبه الرسول ، وقد أملي عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه . قالوا إن هذا القرآن « إفك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ،هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين يعني أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم ، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملى عليه . يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب وأمليت ، بكرة وأصيلاً . يقول وتملى عليه غدوة وعشياً » ، « وأعانه عليه قوم آخرون . يقول : وأعان محمداً على هذا الإفك الذي افتراه يهود »[3] . وقد رد على هذا الرأي (نولدكه) في كتابه : (تأريخ القرآن) ، وعده قولاً لا أهمية له[4] .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها ، وهي جمع (أسطار) و (أسطير) و (أسطور)[5] . واللفظة من الألفاظ المعربة . وهي Istoriya (استوريا) في اليونانية ، و Historia في اللاتينية ، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتأريخ . ويظهر أن الجاهليين قد أخذوها من الروم قبل الاسلام ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه ، أي في معنى تأريخ وقصص .

ولا أستبعد وجود الكتب التأريخية باليونانية وباللاتينية في مكة ، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون

---

١ Noldeke I, S. 16, Ency. of Islam vol. IV, p. 1016.

٢ الفرقان ، الآية ٥ .

٣ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) ، أسباب النزول ، للنيسابوري (١٦٠) .

٤ Noldeke, I, S. 17.

٥ تاج العروس (٣/٢٩٧) ، المفردات (٢٣١) ، البيضاوي ، تفسير (١/١٤٤) ، تفسير الطبرسي (٧/٣٢) ، (١٤/٦٦) .

بها إذا تلاقوا ، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة،ويكتب أخرى مدوّنة بلغتهم. وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنـــه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن . وإليه الإشارة في الآية : « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي »[1]. وهي في سورة النحل ، وسورة النحل من السور المكية . « كانـــوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي » ، « وكان صاحب كتب ، عبد لابن الحضرمي » . « فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حـــين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : انما يعلمه »[2] .

وقد ذهب (شبرنكر) الى وجود (صحف ابراهيم) عند الجاهليين ، زعم ان الرسول قرأها وأخذ منها . وقد رد على رأيه هذا (نولدكه) ، بقـوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونسبه لنفسه وادعاه ، على أنه وحي أوحى الله به اليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمـــد لتلك الصحف في القرآن . لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا فلا يعقل الأخذ بكلام (شبرنكر)[3] .

وورد في كتب أهل الأخبار أن (الأحناف) كانوا يقرأون الكتب،وتبحروا في التوراة والانجيل ، ومنهم من وقف على لغة (بني إرم) وعلى العبرانيـــة . ومن هؤلاء (ورقة بن نوفل بن أسد) ، « الشاعر صاحب العلم في الجاهلية . وكان قـــد قرأ الكتب وتبحر في التوراة والانجيل ، وهو الذي لقيته خديجة في أمر النبي »[4] .

وورد في بعض الأخبار في تفسير الآية: « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزُواً »[5] ان هـــذه الآية إنما نزلت في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ، ويضاهون بهـــا القرآن ، ويقولون إنها أفضل منه[6] . وفي هذا الخبر دلالة على وقوف الجاهليين

---

١ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٢ تفسير الطبري (١١٩/١٤ وما بعدها) .
٣ Noldeke, I, S. 17, Sprenger, Lebens Muhammad, II, S. 367.
٤ الاشتقاق (١٠٢) .
٥ سورة لقمان ، الآية ٦ .
٦ العقد الفريد (٩/٦) .

على الكتب واستعمالهم لها ، وخاصة كتب السمر والأحاديث القديمة ، إذ لا يعقل أن يكون شراؤهم لها حادثاً طارئاً ، ظهر عندهم بنزول القرآن .

وذكر بعض المفسرين أن الآية المذكورة نزلت في حق « النضر بن الحرث وكان يتجر الى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم : رستم واسفنديار فيحدث بها قريشاً . وقيل كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به الى قينته ، فيقول اطعميه واسقيه وغنّيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك محمد اليه من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه »[1] .

وإذا صح ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن هذه الآية قد نزلت بحق (النضر) لأنه كان يعاند الرسول ويعارضه وقت يكون مجتمعاً بنفر من الناس يلقي عليهم مبادىء الإسلام ، فيقرأ عليهم من كتب الأعاجم ومن قصص : رستم واسفنديار فإن ذلك يدل على أنه كان يتقن الفارسية ، وأنه كان يمتلك كتب الفرس ويقرأ بها وهو بمكة ، ويترجم ما جاء فيها لمن يتجمع حوله . وأنه اشترى جملة كتب خلال تجاراته مع العراق .

فنحن اذن أمام أقدم مترجم يصل الينا خبره من مترجمي العرب قبل الإسلام بمكة . يقوم بترجمة كتب من الأعجمية الى العربية . ويكون بذلك قد سبق المسلمين بزمن طويل في ترجمة كتاب رستم واسفنديار الى العربية . غير أننا يجب أن نتحفظ ونحترز كثيراً في قولنا هذا . فنحن لا نقصد أنه ترجم كتاب رستم واسفنديار ترجمة تدوين وتحبير ، وبالتمام والكمال . فقول مثل هذا يكون قولاً جزافاً ، لا يستند الى علم أو دليل إن قلته . وإنما أقصد ترجمة شفوية على نحو ما ذكره وأورده المفسرون وأصحاب السيرة . وقد ترجم هذا الكتاب في الإسلام . ترجمه جبلة بن سالم[2] .

ولا أعتقد أن رجلاً مثل الحارث بن كَلَدة الثقفي ، أو ابنه النَّضر ، وهما من العلماء بالطب ، لم يرجعا الى مؤلفات في الطب مدوّنة بلغة من اللغات الأعجمية ، للحصول على علمهما في الطب . وكيف يمكن ذلك ، وقد درسا في مدرسة لم تكن

---

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (٢١/٥٢) ، سيرة ابن هشام (١/٣٨٣ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/٥٢) .

٢ الفهرست (٤٣٨) .

مدرسة عربية ، هي مدرسة (جنديسابور) ، عرفت واشتهرت في الطب . وقد كان عماد دراستها في الطب ما ألفه اليونان ، وما نقله منها علماء السريان . ولا أعتقد أنهما كانا في جهل بمؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما ممن بنوا صنعة الطب، ووضعوا فيها المؤلفات. بل لا أعتقد أن رجالاً في مكة أو في يثرب أو الطائف كانوا على جهل بأسماء مشاهير حكماء اليونان ، وبينهم من كان له اتصال ببلاد الثقافة والعلم وبالأجانب على نحو ما ذكرت ، وإن اغفل عن ذكرهم أهل الأخبار .

ويظهر من روايات أهل الأخبار — مثل رواية ابن الكلبي عن وجود دواوين فيها ما مدح به آل لخم وما قيل فيهم من شعر ومقدار ما حكم كل واحد منهم ، وروايات غيره عن تدوين الشعر قبل الاسلام — أن الجاهليين كانوا قد شرعوا في تدوين الأخبار والشعر وما لفت انتباههم قبل الاسلام ، وقد يكون ذلك قبيل الاسلام بعهد غير بعيد ، وأن التدوين كان بهذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، أو بلهجات قريبة منها . ومعنى هذا أن هذه اللهجة كانت قد اكتسبت قوة في هذا العهد ، حملت الناس على التدوين وعلى نظم الشعر بها . ولكن الذي رفعها وجعلها لغة للعرب أجمعين ، هو القرآن الكريم من غير شك ، فبفضله صارت هذه اللغة لغة للعرب كلهم ولغة المسلمين الدينية .

ويظهر من القرآن الكريم أن هذه اللغة كانت قد عرفت ألفاظ الحضارة والفكر في يوم نزوله ، لورودها فيه . ولورودها فيه أهمية كبيرة في إعطاء فكرة عن مستوى أهل الحجاز العقلي في ذلك اليوم ، ففيه ألفاظ مثل العلم والعلماء والحكمة والأساطير والأمثال الخ ... وألفاظ ذات صلة بالكتابة والتدوين تحدثت عنها ومصطلحات أخرى ، ولا يمكن ورود مثل هذه الكلمات في لغة قوم ما ، ما لم يكن لهم أو لجماعة منهم على الأقل ، حظ من ثقافة وتفكير وعلم .

ولا أقصد أن الجاهليين استعملوا تلك الألفاظ بمدلولها المفهوم في الزمن الحاضر، أو بالمعاني المفهومة منها عند اليونان . فلفظة (علم) مثلاً ، لا تعني علماً بالمصطلح الحديث أي في مقابل Science في الانكليزية ، وإنما تعني المعرفة عامة . ولفظة (علماء) ، لا تعني المشتغلين بالعلوم خاصة أي ما يقال لهم Scientist في الانكليزية ، وإنما يراد بهم العارفون أصحاب المعرفة والفهم . وقد صار للفظتين مدلولان خاصان في العصر العباسي ، ولكن هذا لا يعني أن لفظة (علم) أو (علماء) ، لم تكن تعني معنى خاصاً عند الجاهليين ، وإلا ما استعملت للتعبير

عن معان معينة في القرآن الكريم ، وما ميز القرآن الكريم والحديث النبوي العارفين بلفظة علماء ، لتمييزهم عن السواد . وبهذا المعنى وردت لفظة (عالم) وعلم عند العبرانيين[1] .

ولا أستبعد تأثر المثقفين الجاهليين ومن كان على اتصال بالعجم وباليهود والنصارى بالآراء الفلسفية والدينية وبالجدل الذي وقع بين المذاهب النصرانية في أمور عديدة. فقد خالط الجاهليون ، ولا سيما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، أقواماً عديدة ذات ثقافات متباينـــة ، واحتكوا بها ، وأخذوا منها ، فلا يعقل ألا يتأثروا ببعض آرائهم في الكون وفي الحياة وفي سائر نواحي التفكير . وقد وردت في شعر للأعشى وفي شعر لبيـــد ، فكرتان متناقضتان عن الجبر والاختيار ، فذهب الأعشى في هذا البيت :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامـــة الرجلا

مذهب القائلين بالاختيار، أي أن الانسان مختار قادر على أفعاله . أما الأعشى فذهب مذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مُجبَر ، مسير ، وذلك في قوله :

إن تقوى ربنـــا خير نقل وبـــإذن الله ريثي وعَجَل
من هداه سُبُـل الخير اهتدى ناعم البال،ومن شاء أضل[2]

وقد سبق أن ذكرت في مواضع متعددة من هذا الكتاب أن اكثر من نُسِب الى التوحيد ، أي من ينعتهم أهل الأخبار بالحنفاء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وكانت عندهم كتب أهل الكتاب ، وان أكثرهم كانوا أصحاب رأي وفكر في الخلق وفي هذا العالم. ولكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا في نصرانية،لأنهم لم يجدوا في الديانتين شيئاً يفرج ويرفه عما كان يجول في رؤوسهم من آراء ومقالات عن الخالق والكون . وقد جالس هؤلاء رجال اليهود والنصارى ، وتكلموا معهم في أمور عديدة من أمور الفكر والدين في جزيرة العرب وفي بلاد العراق وبلاد الشأم. وينسب لجندب بن عمرو بن حممة ، وهو من دوس ، أنه كان يقول في الجاهلية:

---

١ Hastings, Dict. of the Bible, p. 831.

٢ العقد الفريد (٢/٣٧٨) .

إن للخلق خالقاً لا أعلم ما هو . ثم جاء الى الرسول ، فأسلم . وقد ذكر أن ورقة بن نوفل،وهو واحد من المذكورين ، كان قد قرأ الكتب وكتب بالعبراني أو السرياني ، وإنه كتب بالسريانية (العبرانية) من الإنجيل ما شاء أن يكتب . وكان قد امتنع عن أكل ذبائح الأوثان[1] . وذكر أيضاً : أن زيد بن عمر بن نفيل ، وهو ممن كان على الحنيفية ، كان ينتقد قريشاً ، ولا يأكل ذبائحها ، لأنها ذبحت للأصنام والأوثان[2] ؛ وأن عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله بن غفار المعروف بأبي اللحم الغفاري كان يأبى أن يأكل اللحم ، ولهذا سمي : (آبي اللحم) . وكان شريفاً شاعراً . وقد أسلم : وشهد حنيناً[3] . وكان لكل هؤلاء وقوف على كتب أهل الكتاب ، ولهم علم بأقلامهم .

وقد ذكر أهل الأخبار أن وهب بن منبه وأخاه كانا يستوردان الكتب القديمة من بلاد الشأم . ويرد مصطلح (الكتب القديمة) في كتب السير والأخبار[4] . ووهب بن منبه وأخوه من الاسلاميين ، ولكن استيرادهما للكتب ، لم يكن بدعاً واكتشافاً منهما ، بل لا بد أنه كان قديماً معروفاً عند الجاهليين .

وقد ذكر أهل الأخبار عبد عمرو بن صيفي النعمان المعروف بأبي عامر الراهب في جملة من كان يناظر أهل الكتاب،ويتتبع الرهبان ، ويألفهم ، ويكثر الشخوص الى الشأم . ومن هنا قيل له : الراهب[5] . وقد علم بذلك علم أهل الكتاب .

وورد أن أهل الكتاب ، وهم اليهود ، « كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم »[6] ، وورد جواز تفسير التوراة والإنجيل باللغة العربية[7]. وكان اليهود يجادلون رسول الله في أمور الدين ، وقد أشير الى جدالهم له في القرآن الكريم : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

---

١ الاغاني (٣/١٤) ، (٣/١٢٠) ، (١٢/٥٢) .
٢ الاغاني (٣/١٥ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/١٣) ، الاستيعاب (١/١١١) (حاشية على الاصابة) .
٤ شرح القاموس (٥/٤٢١) .
٥ نسب قريش (ص ٢٨١) .
٦ ارشاد الساري (١٠/٤٦٦) .
٧ المصدر نفسه (ص ٤٦٥) .

منهم . وقولوا : آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحـد ونحن له مسلمون »[1] ، وكانوا يستعينون في جدلهم بالتوراة ، يفسرونها بالعربية للمسلمين[2] . وقد فسر بعضهم الآية : « ليقولوا دارست » ، « بقوله : قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وفسرها بعضهم بذاكرتهم ، أو قرأت كتب أهل الكتاب[3] ، فنحن إذن أمام أقدم أخبار تشير الى ترجمة العهد القديم الى العربية ، ليفهمها العرب المشركون . وقد كان جدال اليهود مع النبي على أمور واردة في التوراة ، فـلا بد وأنهم كانوا يستعينون بالترجمة في هذا الجدال .

وفي أخبار أهل الأخبار هذه مواضع تثير التساؤل وتوجه الانتباه الى قضية وقوف أهل الجاهلية وصدر الإسلام عـلى كتب أهل الكتاب ، ونقلهم عنها وشرحهم لبعض ما نقلوه باللغة العربية . فقـد وقفنا تواً على ما ورد عن بعض الأحناف من وقوفهم على كتب أهل الكتاب ومن معرفتهم بالعبرانية والسريانية ، وقد وقفنا من أخبارهم على أن (عبـدالله بن عمرو بن العاص) كان قد قرأ (الكتاب الأول)[4] . وأنه كان يقرأ بالسريانية[5] ، وأنه استأذن رسول الله في أن يكتب ما سمعه منه ، فأذن له ، فدوّنه في صحيفة سماها : (الصادقة)[6] ، وروي أنه كان يقرأ الكتابين : التوراة والإنجيل[7] . وأنه « كان فاضلاً عالمـاً قرأ الكتاب واستأذن النبي في أن يكتب حديثه ، فأذن له ، فكتب عنه حديثه وحفظ عنـه ألف مثل[8] . وروي أنه كان على علم بالمثناة ، و (المثاة) (المشنا) في تفسير التوراة ، وأنه جمع كتباً حصل عليها يوم (اليرموك) ، وكان له علم بها »[9] .

وروي أن (عمر) انتسخ كتـاباً من كتب أهل الكتاب ووضعه في أديم ، وجاء به الى رسول الله ، فقال له : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ قال : يا رسول

---

١ العنكبوت ، الآية ٤٦ .
٢ تفسير الطبري (٢١/٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٥٠/٤) ، (درس) .
٤ الطبقات (٢٦٧/٤) (صادر) .
٥ الطبقات (٢٦٦/٤) (صادر) ، المعارف (٢٨٧) .
٦ الطبقات (٢٦٢/٤) (صادر) .
٧ الاصابة (٣٤٣/٢) ، (رقم ٤٨٤٧) .
٨ الاستيعاب (٣٣٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ تاج العروس (٦١/١٠) ، (ثنى) .

الله كتاب استنسخته لنزداد به علماً الى علمنا . فغضب رسول الله حتى احمرّت وجنتاه » . وورد أيضاً أن رجلاً من (بني عبد القيس) سكنه بالسوس، كان قد نسخ (كتاب دانيال) ، وكان يقرأه ويفسره للناس ، وذلك في أيام عمر، فنهاه عن ذلك ، وشدد عليه في وجوب محو ما كتبه[1] . وورد أن (عمر) كتب الى عامله (أبي موسى الأشعري) كتاباً نسخته : « إغسلوا دانيال بسدر وماء الريحان »[2] .

وورد أن (عمر بن الخطاب) ، قال للنبي : انا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فنهى الرسول عن ذلك[3] .

ويرد اسم (كتاب دانيال) في خبر آخر ، فقد ورد عن (عمرو بن ميمون الأودي) ، أنه كان جالساً مع قوم ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقالوا له : ما هذا الكتاب : قال كتاب دانيال[4] .

ولم يرد اسم (دانيال) في القرآن ولا في الحديث ، ولكنه معروف جداً عند المسلمين ، بأنه نبي ، ولـه قصص في أخبار الرسل والأنبياء[5] . وقد وصلتهم قصصه ممن أسلم من يهود ومن اليهود الذين عاشوا بين الجاهليين وبين المسلمين . حيث اكتسبت رؤيا (دانيال) وتنبؤاته وتفسيره لحلم (نبوخذ نصر) شهرة خاصة عند يهود ، وانتقلت منهم الى المسلمين . ويعد (دانيال) أحـد الأنبياء الأربعة الكبار ، وتولى مناصب عالية عند البابليين والميديين (الماديين) ، وقـد اشتهر بتعبير الرؤيا وبالتنبؤ عن المستقبل[6] ، والظاهر أن شهرته هذه عند أهل الكتاب ، أكسبته منزلة خاصة عند المسلمين .

وورد أن (ابن قرة) جاء بكتاب من بلاد الشأم الى (عبدالله بن مسعود) ، وكان قد أعجب به ، فأمر (عبدالله بن مسعود) بطست فيه مـاء ، محا به أثر الكتابة[7] .

---

١ الخطيب البغدادي ، تقييد العلم (٥١) .
٢ كنز العمال (٦/٣١٠) ، خورشيد أحمد (١٣٢) ، القسم العربي (رقم ٢٤١) .
٣ الفائق (٣/٢١٨) .
٤ تقييد العلم (٥٦ وما بعدها) .
٥ راجع قصص الانبياء (ص ٢٣١) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٣٢ وما بعدها) .
٧ سنن الدارمي (١/١٢٣) ، تقييد العلم (٥٣) .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) قال: « أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبّها الى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحدٌ عنده كتاب إلا أتاني به ، فأرى فيه رأيي . فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ؛ فأتوه بكتبهم . فأحرقها بالنار »[1] . ويظهر أن هذه الكتب هي من كتب أهل الكتاب ، فعندنا أخبار عديدة تذكر حصول الصحابة على كتب كثيرة وقعت اليهم في الغزوات والحروب التي جرت في بلاد الشأم .

وقد ورد في شعر بعض الشعراء الجاهليين ما يفيد وقوف أصحاب ذلك الشعر على كتب أهل الكتاب . كالزبور و (خط زبور) و (مصاحف الرهبان) و (التوراة) و (المجلة) أي الانجيل وأمثال ذلك ، مما يدل على أنهم كانوا قد وقفوا على خبرها وشأنها ، وأن اليهود والنصارى وهم عرب على اليهودية والنصرانية كانوا يتداولونها فيما بينهم ، باعتبار أنها كتبهم المقدسة[2] .

وقد وجد المسلمون مصاحف لليهود في مستوطناتهم فيها التوراة وفيها كتبهم الأخرى . فذكر ان المسلمين لما فتحوا (خيبر) « وجمعت مصاحف فيها التوراة، ثم ردت على اليهود »[3] .

وأنا لا أستبعد احتمال ترجمة الكتاب المقدس بقسميه ، كلاً أو جزءاً منه الى العربية ، فقد كان اليهود — كما سبق أن قلت — يفسرون ليهود يثرب ولعربها التوراة وكتبهم الدينية بالعربية، كما كان المبشرون يفسرونه بالعربية ،وقد رأيت ان قريشاً اتهموا الرسول بأنه كان يستمع الى رجل نصراني ، ويأخذ منه . وانهم ذكروا ان الأحناف كانوا يقرأون التوراة والانجيل ، وان عرب العراق كانوا يدرسون في الكنائس والأديرة بالعربية ، فلا أستبعد احتمال وجود ترجمات عربية للكتب الدينية قبل الاسلام ، تلفت لأسباب عديدة ، منها انها لم تكن اسلامية، ولأسباب أخرى ، فلم تصل الينا لذلك .

وقد ورد في بيت شعر ينسب الى (بشر بن أبي خازم) ، ذكر كتاب كان عند بني تميم ، إذ جاء فيه :

---

١ تقييد العلم (٥٢) .
٢ خزانة الادب (٣/١١) ، ديوان السموأل (١٢) ، اللسان (١٢/١١٣) «صادر» .
٣ امتاع الاسماع (١/٣٢٣) .

وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخليل بالركض المعار[1]

ولو أخذنا بظاهر العبارة ، دل البيت على وجود كتاب عند بني تميم ، قد يكون صحيفة وقد يكون كتاباً مؤلفاً من صفحات . ولو أخذنا بالتأويل وقلنا معناه : وجدنا هذه اللفظة مكتوباً ، ان أحق الخيل بالركض المعار، انتفى وجود كتاب لديهم[2] . وقد نسب هذا البيت الى (الطرماح بن حكيم) ، وهو شاعر اسلامي . واذا صح ان هذا البيت هو من شعر الطرماح ، جاز أخذ لفظة (كتاب) بالمعنى الحقيقي ، إذ كانت الكتب معروفة في هذا الوقت .

وجاء في كتاب (إمتاع الأسماع) ، أن الرسول « كتب هذه السنة المعاقل والديات ، وكانت معلقة بسيفه »[3] . وأشار الطبري الى هذه الصحيفة بقوله : « وقيل : ان هذه السنة كتب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المعاقل فكان معلّقاً بسيفه »[4] ، والسنة المشار اليها هي السنة الثانية من الهجرة . والخبر أشبه ما يكون بخبر (الصحيفة) المنسوبة الى (علي بن أبي طالب) ، فقد ورد في (صحيح البخاري) : « عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا ، إلاّ كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قال:قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر » . وورد أنها « كانت معلقة بقبضة سيفه . إمّا احتياطاً أو استحضاراً » ، وورد « فأخرج كتاباً من قراب سيفه »[5] . ويكاد يكون الخبر واحداً ، فالصحيفة صحيفة المعاقل والديات ، وموضعها في الخبرين السيف، معلقة به ، أو في قرابه.ويظهر من روايات أخرى أن فيها أحاديث عن الرسول: مثل : المدينة حرام ما بين عائر الى كذا ، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم،فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس

---

١ المفضليات (٩٨) ، الموشح (١٧٩) ، تاج العروس (٣/٤٣٤) ، (عير) .

٢ (فمعناه وجدنا هذه اللفظة مكتوبة) ، المرزباني ، الموشح (١٧٩) .

٣ المقريزي ، امتاع الاسماع (١/١٠٧) .

٤ الطبري (٢/٤٨٦) .

٥ ارشاد الساري (١/٢٠٣ وما بعدها) .

أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عـــدل » . وورد انه كان فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل[1] .

ولم نجد في الأخبار ما يفيد أن الصحابة كانوا على علم بصحيفة النبي ، ولو كانت للرسول صحيفة فيها أحكام المعاقل والديات ، كان الرسول قد علقها على سيفه ، دلالة على اهتمامه بها ، لما سكت عنها الصحابة ، مع ما لها من الأهمية بالنسبة لاصدار الأحكام ، ولأنها يجب أن تكون المرجع المطاع الثاني بعد القرآن. ولذلك فأنا أشك في أمر هذه الصحيفة ، وفي صحيفة الإمام كذلك المأخوذة من كلام الرسول ، ولو كانت صحيفة الإمام ، هي صحيفة الرسول نفسها، صارت اليه بعد وفاته ، لما سكتت الأخبار من الإشارة اليها وعن انتقالها الى (عليّ) لما لها من أهمية ، ولا سيما بالنسبة الى الشيعة الذين يفتشون عن هذه الأمور باعتبارها منقبة تضاف الى مناقب الامام،وحجة في اثبات إمامته واعتماد الرسول عليه وحده. ولو كانت الصحيفة صحيفة الامام ، دوّنها بنفسه ، معتمداً على حديث الرسول، وكانت عنده معلقـــة بسيفه ، حرصاً عليها ، لتكون معه وتحت متناول يده ، يراجعها متى شاء،فلا يعقل أن تكون مقتصرة على المعاقل والديات وأسنان الابل ، وهي أمور يعرفها الامام ، وهو فقيه ، ومرجع من مراجع الافتاء ، دون حاجة الى أن يكتبها في صحيفة يحرص على حملها معه معلقة بسيفه ، ثم إنها إذا كانت على هذه الأهمية بالنسبة للإمام ، لما تركها أصحابه ، فلم ينقلوها بالنص والحرف، وهي أخطر وثيقة ، مع أنهم رووا عنه أحاديث كثيرة ، حتى نسب النـــاس له خطباً وأشياء لا يصح صدورها منه . ومنها صحيفة تسمى : (الصحيفة الكاملة، أو زبور آل محمد وإنجيل أهل البيت »[2] .

ورأيي ان ما ورد من ان الخليفة (أبو بكر) كان يمتلك صحيفة فيها حديث الرسول[3] ، هو خبر غير صحيح كذلك ، ولو كانت لديه صحيفة ، لما خفي أمرها عن الصحابة ، فلم يحفظوها ولم ينقلوا عنها . وأما ما ورد من أمر صحيفة

---

١ الكافي للكليني ، (٨٥) ، الارشاد (٢٥٨) ، أبورية ، أضواء على السنة المحمديـــة (٩٤ وما بعدها) .

٢ بروكلمن (١/١٨٣) .

٣ الذهبي ، تذكرة الحفاظ (١/٥) .

(عبدالله بن عمرو بن العاص) ، المسماة بالصحيفة الصادقة ، وما كتب فيها من حديث الرسول ، ومن انه قد جمع ألف مثل من أمثال الرسول[1] ، وما ورد من صحيفة (همام بن منبه) ، المسماة بالصحيفة الصحيحة ، فقد بحث في أمر هذه الصحف العلماء[2] .

وقد عدّ (الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان) التميمي المجاشعي ، في جملة علماء العرب وحكامهم . قال عنه بعض العلماء : « وكان عالم العرب في زمانه »[3] . كان عالماً بالنسب وبأخبار الناس ، ولهذا كانوا يتنافرون اليه . وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام . وقد حكم في المنافرة التي وقعت بين (جرير بن عبدالله) البجلي ، وبين (خالد بن أرطاة) الكلبي . وكان (خالد) زعيم (قضاعة) يومئذ ، فنفر (الأقرع) جريراً على خالد ، بمضر وربيعة[4] . وكان من المؤلفة قلوبهم[5] .

والنسب هو من أهم المعارف التي عرف بها أهل الجاهلية . وهو علم يرتقي الى عهد بعيد عن الاسلام من دون شك، لما له من تماس مباشر بحياتهم الاجتماعية وبنظمهم السياسية ، ولأنه الحماية بالنسبة الى الجاهلي في تلك الأيام . وأستطيع أن أدخل في علم النسب ، العلم بأنساب الخيل ، فقد عنوا بالخيل عناية كبيرة ، وحفظوا أنسابها ، ووضعوا شجرات أنساب لها . كما عنوا بأنساب الإبل ، لما لهذا النسب من صلة بالاصالة وبسعر بيعها وشرائها . ونجد في الأخبار ما يشير الى وجود أناس تخصصوا بحفظ نسبها .

والنسّاب : العالم بالنسب ، وهو النسّابة . أدخلوا الهاء للمبالغة والمدح . « وفي حديث أبي بكر ، رضي الله عنه : وكان رجلاً نسابة ، النسابة : البليغ العالم بالأنساب »[6] .

---

١ الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٢/٣٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) .
٣ الخزانة (٣/٢٩٦) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الاصابة (١/٧٢) ، (رقم ٢٣١) .
٦ اللسان (١/٧٥٦) ، (نسب) .

والنسب : نسب القرابات . يكون بالآباء ، ويكون بالقبائل ، ويكون الى البلاد ، ويكون في الحرف والصناعة[1] .

وقد نبغ بين القبائل والقرى أناس تخصصوا بحفظ النسب ، منهم من برع في حفظ نسب قبيلته ، ومنهم من برع في حفظ أنساب جملة قبائل ، وممن اشتهر وعرف من قريش بحفظ النسب وبالعلم به ، (أبو بكر) . وكان علمه بعلم الأنساب ، ثم بأمور الناس ، ثم الشعر . قيل إنه « كان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر » ، وقيل إنه كان أنسب العرب ، وأعلم قريش بأنسابها ، وأنسب هذه الأمة[2] . و « كانت قريش تألف منزل أبي بكر، رضي الله عنه ، لخصلتين : العلم والطعام »[3] . ولما أمر الرسول حسان بن ثابت بالردّ على شعراء قريش قال له : « إئت أبا بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقفه على أنسابهم » . فلما سمعت قريش شعر (حسان) ، قالت : « إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة »[4] . ولما مرّ بالناس في معسكرهم بالجرف ، جعل ينسب القبائل[5] .

وكان (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف) ، وهو أحد أشراف قريش وحلمائها من علماء النسب في قريش ، وكان ممن أخذ النسب من أبي بكر . وكان ممن يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب عامة[6] .

وعرف (أبو جهم بن حذيفة) القرشي العدوي بعلمه بالنسب ، وكان من المعمرين في قريش . عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام . وكان من مشيخة قريش وصحب النبي[7] . وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب[8] .

---

١ اللسان (١/٧٥٥) ، (نسب) ، تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .
٢ الاصابة (٢/٣٣٤) ، (رقم ٤٨١٧) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) .
٣ البيان والتبيين (٤/٧٦) .
٤ الاستيعاب (١/٣٣٥) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الفائق في غريب الحديث (١/١٨٤) .
٦ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢) ، (حاشية على الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٠١) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) ، تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .
٧ نسب قريش (٣٦٩) .
٨ الاصابة (٤/٣٥) ، (رقم ٢٠٧) .

ومنهم : (مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف) . وقد أخذ عنه النسب . وكان عالماً بأنصاب الحرم[1] . قال عنه (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري) « وكان له سر وعلم ، وكان يؤخذ عنه النسب »[2] ، وقد أرسله (عمر) مع (سعيد بن يربوع) ، و (أزهر بن عبد عوف) ، و (حويطب بن عبد العزى) لتجديد أنصاب الحرم ، فجددوها ، ويقال إن (عثمان) بعثهم كذلك . وهو راوي خبر قصة استسقاء (عبد المطلب) ، وما ورد فيه من الشعر[3] .

قال (الجاحظ) : « أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار ، وعلماؤهم بالأنساب والأخبار : مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة ، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب . وكان عقيل أكثرهم ذكراً لمثالب الناس، فعادوه لذلك ، وقالوا فيه وحمقوه »[4] . و (حويطب) من مسلمة الفتح ومن المؤلفة قلوبهم[5] . ومات زمان معاوية ، وهو ابن عشرين ومائة سنة . وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار[6] . وتوفي سنة (٥٤ هـ)[7] .

وروي ان غنائم الحيرة لما وصلت الحيرة وفيها سيف النعمان بن المنذر، استدعى (عمر) (جبيراً) ، فسأله عن نسب (النعمان) فقال له : انه أشلاء قنص بن معد . فأعطاه سيفه ، وذكر انه كان أنسب العرب، وعنه أخذ (سعيد بن المسيب) النسب[8] .

ومن نسابي قريش (عقيل بن أبي طالب) . ولما وضع (عمر) الديوان، استعان بعقيل ومخرمة ، وجبير في ترتيب عطاء الناس على منازلهم ، فبدأوا ببني هاشم[9] . وعقيل هو أخ (علي بن أبي طالب) ، ذكر أنه « كان عالماً بأنساب

---

١ الاصابة (٣/٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .
٢ نسب قريش (٢٦٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٧٠) ، نكت الهميان (٢٨٧) .
٤ البيان والتبيين (٢/٣٢٣) .
٥ البيان والتبيين (٢/٣٢٣) .
٦ نسب قريش (٤٢٥ وما بعدها) .
٧ الاصابة (١/٣٦٣) ، (رقم ١٨٨٢) .
٨ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الفائق (١/٦٠٨ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٠٣) .
٩ ابن سعد ، المجلد الثالث ، الجزء الاول (٢١٢) .

قريش ومآثرها ومثالبها ، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة » ، فهو من شيوخ العلم الذين نصبوا أنفسهم لتعليم الأنساب والمآثر والمثالب . قيل «كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات: عقيل ، ومخرمة ، وحويطب، وأبو جهم . وكان عقيل يعد المساوي ، فمن كانت مساويه أكثر يقر صاحبه عليه، ومن كانت محاسنه أكثر يقره على صاحبه »[1] ، ونظراً لتكلمه مع الناس وتحدثه عن مساويهم فقد عودي وحمق[2] .

وقد صار مسجد الرسول في المدينة موضع دراسة للمسلمين ، فقد رأينا (حسان ابن ثابت) ، وهو ينشد الشعر فيه ، وهذا (عقيل) يعلم الناس الأنساب فيه ، وهناك غيرهما من كان يعلم الناس في هذا المسجد .

وممن عرف واشتهر بعلم النسب،وأخذ النسب عن الجاهليين ، دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم ، وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ، وزيد بن الكيس النمري ، والنخار بن أوس القضاعي ، وصعصعة بن صوحان، وعبدالله بن عبد الحجر بن عبد المدان ، وعبيد بن شريه وغيرهم[3] .

وذكر عن (دغفل بن حنظلة) النسابة السدوسي الشيباني ، انه كان عالماً بالعربية والأنساب والنجوم ، وقد اغتلبه النسب . وقد أعجب به (معاوية) لما سأله أموراً كثيرة في هذه العلوم[4] . ولا بد وأن يكون قد أخذ علمه ممن أدرك الجاهلية من رجال ، وممن عاصر الرسول . وذكر انه و (زيد بن الكيس) النمري ، كانا ممن أثارا أحاديث عاد وجرهم ، ولذلك قال فيهما الشاعر :

أحاديث عن أبناء عادٍ وجرهم يثورها العضان زيد ودغفل[5]

وروي ان معاوية « قال لدغفل بن حنظلة النسابة . بمَ ضبطت ما أرى ؟

---

١ الاصابة (٢/٤٨٧) ، (رقم ٥٦٣٠) .
٢ البيان والتبيين (٢/٣٢٤) ، نكث الهميان (٢٠٠) .
٣ الاصابة (١/٤٦٤) ، (رقم ٢٣٩٩) ، البيان والتبيين (١/١١٨) ، بلوغ الارب (٣/١٩٦) ، التمدن الاسلامي (٣/٤٠ وما بعدها) ، الفهرست (١٣٧ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٢٢ وما بعدها) .
٤ الاصابة (١/٤٦٤) ، (رقم ٢٣٩٩) ، الاستيعاب (١/٤٦٧) .
٥ العسكري ، جمهرة (٢/١١٣) ، (رقم ١٣٥٨) ، الميداني (٢/٢٤) .

قال : بمفاوضة العلماء . قال : وما مفاوضة العلماء ؟ قال : كنت اذا لقيت عالماً أخذت ما عنده ، وأعطيته ما عندي »[1] . وذكر ان (أبا بكر) ، سأل قوماً من (ربيعة) عن نسبهم ، وفيهم (دغفل) ، وكان غلاماً إذ ذاك ، فلما انتهى أبو بكر من استجوابهم ، سأله (دغفل) عن نسبه ، فأفحمه[2] .

وقد اشتهر (دغفل) في النسب ، حتى ضرب به المثـــل في النثر وفي الشعر بسعة علمه به ، وقد ذكره (الفرزدق) بقوله :

أوصى عشية حين فارق رهطـه عند الشهادة في الصحيفة دغفل
أن ابن ضبّة كان خـير والداً وأتم في حسب الكرام وأفضل[3]

ونجد اسمه في شعر شعراء آخرين[4] .

وكان ممن أدرك النبي ، ولم يسمع منه . واسمه (الحجر بن الحارث) الكناني؛ ودغفل لقب له[5] .

وكان (صحار) العبدي من النسابين البلغاء ، وله مع (دغفل) محاورات . وكان من المقربين الى معاوية ومن المطالبين بدم (عثمان)[6] .

و (صعصعة) بن صوحان) العبدي ، وكان مسلماً في عهـد رسول الله ولم يره . وشهد صفين مع (علي) ، وكان خطيباً فصيحاً ، له مع معاوية مواقف. « قال الشعبي : كنت أتعلم منه الخطب »[7] . وله اخوة ، منهم (سيحان بن صوحان) العبدي، كان أحد الأمراء في قتال في أهل الردة[8] ومنهم (زيد بن صوحان) وكان سيداً في قومه ، وقد شهد الجمل مع (علي)[9] .

---

١ الفائق (٢/٣٠٤) .
٢ الفائق (٣/٨٤) .
٣ النقائض (١/١٨٩) .
٤ ديوان القطامي (٣١) ، البيان والتبيين (١/٣٢٢ وما بعدها) .
٥ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) .
٦ الاصابة (١/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٧ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) .
٨ الاصابة (٢/١٠٢) ، (رقم ٣٦٣٠) .
٩ الاصابة (١/٥٦٥ وما بعدها) ، (رقم ٢٩٩٧) .

ومن نسابي (كلب) : (محمد بن السائب) الكلبي ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) ، و (شرقي بن القطامي)[1] ، و (الشرقي بن القطامي) ، اسمه (الوليد بن الحصين) ، وقد اتهم بالكذب[2] . وقد ذكر (الجاحظ) و (ابن النديم) أسماء عدد ممن عرفوا باشتغالهم بالأنساب .

وقد برز بعض النسابين في ذكر مثالب الناس ، وقد كان (عقيل بن أبي طالب) منهم ، كما ذكرت . ويذكر ان (زياد بن أبيه) كان أول من ألّف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، قائلاً لهم : استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم[3] . ومن طلاب المثالب وناشرها بين الناس (أبو عبيدة معمر بن المثنى) التيمي ، من تيم قريش . وكان مكروهاً فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره[4] .

وعدّ الشعر عند أهل الجاهلية علماً من علومهم ، يقوم عندهم (مقام الحكمة وكثير العلم) ، « ولم يكن لهم شيء يرجعون اليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر . فيه كانوا يختصمون وبه يتمثلون ، وبه يتفاضلون ويتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون »[5] . وقد أوردوا أسماء أشخاص عرفوا بسعة علمهم وبتبحرهم بالشعر .

الملاحن والألغاز :

ومما أثر عن أهل الجاهلية مما يتعلق باستعمال الذكاء والفطنة واختبار العلم ، الملاحن والألغاز . واللحن عند العرب الفطنة . وقد وضع (ابن دريد) كتاباً في الملاحن ، سماه : (كتاب الملاحن)[6] . وقد كانت العرب تتعمد الملاحن وتقصدها ، إذا أرادت التورية أو (التعمية)[7] . وقد ذكر أهل الأخبار أنهم

---

١ البيان والتبيين (١/٣٢٢) .
٢ الفهرست (١٣٨) .
٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، تهذيب الاسماء واللغات للنووي (١/٢٥٩) كتاب المعارف لابن قتيبة (١٧٦) ، بروكلمن (٢٥٠) .
٤ الفهرست (٨٥) .
٥ اليعقوبي (٢/٢٣٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .
٦ المزهر (١/٥٦٧ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .

استعملوها استعمال (الشفرة) ، أو الرسائل السرية المعماة في نقل الأخبار ، كالذي رووه من أن طيئـاً أسرت رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، فأعطيا لهم به عطيّة لم يرضوها ، فقال أبوه: لا والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلي طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم ، ثم انصرفا .

فقال الأب للعم : لقد ألقيتُ الى ابني كليمة ، لئن كان فيه خير لينجون. فما لبث أن نجا وأطرد قطعة من إبلهم ، فكأن أباه قال له : إلزم الفرقدين على جبلي طيء فإنهما طالعان عليهما لا يبغيان عنه[1] .

ورووا قصصاً أخرى من هذا القبيل[2] ، تحلل تحايل الناس إذ ذاك في كيفية إبلاغ خبر ، أو ايصال رسالة من أسير وقع في أسر ، أو من شخص اعتدى عليه ، أو من رجل طعن ، فأراد ابلاغ قومه باسم طاعنه . فيعمد الشخص الى الكلام المعمى الدال على سذاجة ، لإيصاله الى أهله ، لعلمه بأن في وسع أهله استنباط ألغازه وحل معماه .

وأما الألغاز ، فهي لامتحان الذكاء في الغالب ، ولتمضية الوقت والتسلية . وتكون شعراً كما تكون نثراً[3] . و (الأُلغوزة) ما يعمى به من الكلام[4] .

---

١ المزهر (١/٥٦٧) .
٢ المزهر (١/٥٦٨ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٥٧٨ وما بعدها)
٤ تاج العروس (٤/٧٨) ، (اللغز) .